اسماعيل الخم (١)

بقلم الاستاذ خسيب الكيالي

وقفت بباب حمام « ملكة » حيث يعمل عبد السلام حرقيص مكيساً واجيراً، وشرعت اراقب الزبون الوحيد في البهو الخارجي ، وهو رجل هرم اندفعت حدبته الى وراء كأنها كيس غلة ممتلىء بالغسيل الوسخ ، والتف بالمناشف البيض فلم يبد الا وجهه حتى ليخيل اليك انه شيخ مجلبب بالبياض جالس على المصطبة ، وكان ينكش انفه الكبير على شكل اضحكني ، فقد كان يحط شفته العليا الى اسفل ، ويدخل سبابته في انفه حتى نصفها، فتدمع عيناه ويتقلص جبينه ويتكوم وجهه ثم يتمخط في المنشفة البيضاء بصوت مسموع ، غير خائف من صاحب الحمام ؛ الذي كان يهوم وراء الصندوق قرب المدخل، ورأسه على صدره ، ورجله اليمنى جالسة القرفصاء قربه ، وفي يده مسبحة طويلة كان يحركها في مقامه بين حين وآخر . وكان يفوح من جو الحمام لهاب وابخرة لها رائحة مزيج من العرق والصابون والماء القديم ، وكانت النافورة من الصفيح المدهون بدهان باهت ، تدفع بخيطين من الماء الى الأعلى بتراخ وكسل ، فيعودان الى البركة محدثين وشوشة تجلب النعاس ، ولاسيما لعيني صاحب الحمام ، المتكوم وراء الصندوق وقد تهدل شارباه المصبوغان بالحناء الغامق وبرزت حبيبات من العرق على صلعته المنيرة ، فبدا كأنه قبل مذبوح .

تحركت اريد الدخول الى الحمام الداخلية حيث يقضي عبد السلام اكثر وقته في التدليك والتكييس ، وفتحت الباب فاستقبلني جرذ رمادي كبير نظر الي لحظة وهو يدور بؤبؤية ثم قفز الى الداخل فارعبني . وتراكضت امامي صراصير سوداء لامعة من النوع الذي كنت الاحقه في مطبخ المطعم واشمئز منه حتى الفتيان .. واكاد اظن ان هذه الصراصير عمياء تحركها الروائح ، فكنت احس نحوها احساسا غريبا لا ادري كنهه واجسبه جاءني من سوادها وهزو بها البليد من مصيرها حينما اهرسها بقدمي !

ولم اكد اخطو في الدهليز خطوتين حتى برزلي عبدالسلام وهو طويل ، نحيف ، شفتاه ، مطبقتان دوما ، عيناه غائرتان على عكس عظام وجهه ، رأسه كبير تتقدمه ، جبهة كروية صفراء لا يمل من ترديد حكمته المشهورة « خلقنا يعني علقنا » وكان اذا طلبت منه معونة شتمني وتذمر ثم قضاها لي على احسن وجه !

قال لي بخشونة وهو يسدد نحوي نظرات حادة ، وقد بلل الماء والعرق فوطته وصدره العاري :

ـ ماذا تريد ؟.

قلت :

ـ طردني صاحب المطعم البارحة فلم اشأ ازعاجك فنمت في الجامع . ولكن دراهمي سرقت اثناء نومي !

فضحك ضحكة عصبية وقال :

ـ دراهم ! انت تملك دراهم يا ابا خرطوم ؟! وماذا تطلب عندي ؟! اظن ان حضرة المرحوم والدك قد ورثك اياه من ضمن عبيده وخدمه ! اذهب ليس لك عندي شغل . من الفجر حتى الساعة لم يدخل الحمام إلا زبون واحد قرشه محرم علينا حرمة وقف جامع الاموي ..

قلت :

ـ لابد أن اجد عملا . ان هي إلا ايام معدودات يا عبدالسلام والرزاق الكريم موجود .

قال مزمجراً :

ـ اقعد مت من الجوع هنا فلا يهمني .

فعرفت ان سورة غضبه قد انطفأت ، وانه بدأ يصفو لي ، فرجعت الى البلاطة التي يخلع عليها الزبائن ، في البهو الخارجي احذيتهم وجلست عليها وانا احس بامعائي تتقاتل من الجوع

يعود عهدي بعبد السلام الى اربع او خمس سنوات مضت.

(١) راجع العدد ٦١ و ٦٢ من مجلة البيان ص ٣٦٠ .

وكنت اعمل يومئذ حمالا في كاراج المنشية بشارع بيروت ، وكان هو يشتغل اجيراً وغرسونا في خمارة (الياس مالك) ببناية العابد وهي خمارة بلدية كراسيها من خيزران وزبائنها من الفعلة تزورها الشرطة كل ليلة لتفتيش السكيرين خوفا من ان يتواجد معهم خناجر وسكاكين يستعملونها آخر الليل . وكنت اتردد على هذه الخمارة لان صاحبها « الياس » رجل مهذب يفهم العلوم المصرية ويبيع الخمر بالدين ، واذا وثق بك اقرضك بعض الدنانات . وكان على طول قامته وعبوسه . وديعاً لا يزعج احدا وكثيراً ما كنت اراه يتحدث الى بعض الافندية ، فاصغي الى محاوراتهم اللطيفة التي لا نستطيع ، نحن صنف الفعلة والشغيلة ان ننقل كلامها على الرغم من اننا نفهمها ونستلذها . . دخلت الخمارة ، ذات ليلة ، وجلست الى احدى الطاولات وطلبت بطة من العرق ، وبينما كنت امزق قدحي دخل جماعة من الشباب يتقدمهم كهل ضاوي الوجه ، اسمر ، اسنانه مبشمة ، يضع على عينيه نظارات قديمة ويتحدث بلهجة بدوية ، وكان يضع على رأسه كوفية بالية وعقالا ، برش لونه لطول الاستعمال . فتعجبت كثيراً من ان يتقدم هذا البدوي على هؤلاء الشباب الظرفاء الأنيقين ، وازداد عجبي اذ سمعتهم يعظمونه وينادونه « يا استاذ » ، ولكن عجبي قد زال حينما اصغيت الى حديثه العذب ونكاته اللطيفة وشعره البسيط السهل ، فلم ادرِ الا بكرسي يزحف نحوه وفمي يرتخي من الاعجاب فلا تفوتني كلمة واحدة مما تحدث به . وعرفت فيما بعد ان هذا الذي ظننته بدويا هو الشاب احمد الصافي النجفي الذي نفي من العراق قديما لأنه وطني . . وكان عبد السلام حرقيص في تلك الليلة يشابه رقاص الساعة ، فقد نقل كثيراً من بطات العرق لرفاق الشاعر ، لأن الصافي لا يشرب . وانفتحت شاهيتي انا ايضا لاحاديث الجماعة التي جعلتني اشعر انني لا ازال من بني آدم ، وكانت تزداد بهجتي على الاخص حينما كنت اسمعهم يسبون الحكومة ويتندرون بنواب المجلس ورئيسهم . كانوا يسخرون من كل شيء سخرا رائعا جعلني اشرب ثلاث مدقات عرق ثمنها اربعمائة وخمسون قرشاً . وكان في جيبي سبع ليرات سورية فلما قمت لادفع حسابي اعطيتها كلها لعبد السلام حرقيص كانني اصبحت افنديا يأتيه المال دون حساب ، ورحت انام في الكاراج وانا اكاد اخرج من جلدي لشدة فرحي .

بعد يومين من هذه السهرة اللطيفة امرتني سيدة شقراء سمينة بحمل محفظتها من الداخل الى السيارة الانيقة الواقفة قدام الباب ، فحملتها لها واحكمت ربطها في القسم الخلفي من السيارة ، وتحركت ابغي الرجوع فاذا بها تفرك في يدي ليرتين سوريتين لاشك فيهما ، فوضعتهما في جيبي متمهلا ، ورفعت اني الى أعلى من خيلاء ، وتوجهت الى خمارة الياس مالك . وكان الوقت مساء ، فسرت محاذيا النهر حيث تقوم على الجانبين اشجار العنقود ، تنشر عطرها الناعم الحزين ، وكنت اسمي زهر العنقود ، ازهار الغربة ، لما يبعثه اريجها في قلبي من اللوعة والحنين الى اشياء مجهولة غريبة تدق على فهمي . واحسست سؤالا يندفع دون وعي مني الى فمي ملحاً .

ـ « لماذا امنحتك هذه المرأة الجميلة مبلغا ضخما كهذا ، مع انها لو دفعت لك ربع ليرة لكانت من الكرام جدا ! »

ونكست بصري الى الارض وقد امتلكني الوجوم ، فلمحت ثيابي المهلهلة الرثة ويدي الخشنتين السوداوين وحذائي الضخم يؤذي العين والاذان ، انا الذي لا وطن له ولا اهل ولا دار فاجبت متمتماً :

ـ هذا هو السبب !

واحزنني ان اكون موضع عطف الناس ، عطفهم ولا شيء سوى العطف مع ان نفسي تجوع في بعض الاحيان الى حسدهم وبغضهم وحبهم . . وتذكرت امي تودعني قدام باب الكوخ بالعبرات الصامتة لقدمات منذ زمان بعيد ، وذكرت كرم المختار والجوزة الكبيرة الفرحة دوما باعراس العصافير فاصابني اسى مرير . .

دخلت الخمارة ، وبصري الى الارض دوما ، فبادرني عبد السلام بوجهه الجامد وشفتيه المطبقتين وقامته الممدودة الهزيلة وقال :

ـ ماذا تشتغل انت يا رجل ؟

قلت وانا مشتت الذهن :

ـ حمال في كاراج المنشية .

قال بلهجة حاسمة :

ـ ستشرب الليلة على حسابي . .

فاصبت النظار في وجهه الكادح الخشن وقميصه الممزق

وبنطلونه المرقع وحذائه القذر ، ورفعت نظري من جديد الى عينيه الغائرتين وقد لمعتا ببريق من العطف . العطف أيضاً .. فاحسست بدقات قلبي تزداد سرعة ، وغص حلقي بكلام كثير كثير جداً ، فقلت :

ـ ايها الصديق ...

ولم اكمل ... فقد خنقتني عبرات غزار ..

●

كنت لا ازال على المصطبة ..

خرج عبد السلام مرتدياً سرواله الأسود وجاكيته البني وهما كل مايملك من صنف الملابس ، وكان في رجله مركوب اصفر بلدي. نظر الي باشمئزاز وانتهرني قائلا :

ـ امانزال قاعداً مثل بومة عجوز في خراب اغبر ، تفضل يا مرض الطحال ياداء الاستسقاء وتقدم عبدك ... خلقنا يبني علقنا .

قلت :

ـ الى اين ؟

قال :

ـ لم يبق لي وجهك النحس إلا حذاء قديماً اريد ان ابيعه في سوق العتيق واعلفك بحقه حتى يقضي الله امراً كان ملزوقا في لحية اجدادي .

قلت ـ وانا اكاد انفجر بالضحك على الرغم من حزني :

انا لله وانا اليه راجعون .

قال ساخطاً :

راجعون واقدامنا لاتحملنا من الجوع !

قلت :

ـ اي لقاء معجل بالنسبة اليه يوم الحشر ؟

فصاح مزمجرا :

ـ إخرس انت شاطر في هذا فقط !

وكان صوته حادا فخرست. وأفاق ابوياسين الكبي صاحب الحمام ونظر الينا بطرف ناعس وقال لي بفتور :

ـ مرحبا يا اسماعيل . امة محمد بخير .

فقلت في نفسي :

ـ إذاً لم يطردهم صاحب المطعم .

وحاول ان يغمض عينيه من جديد فاخبره عبد السلام بذهابنا الى سوق العتيق . وكان الزبون الهرم ، صاحب الحديقة قد لبس ثيابه وتقدم من الصندوق ، فتحامل ابو ياسين بمشقة وقام مرحباً وادهشني ان ارى هذا الزبون الهرم الفاني يرتدي بدلة سكرية اللون من الحرير الخالص الرهو ، ويرشق منديلا ناعما في جيب سترته الصغير ، الذي تدلت منه سلسلة ذهبية ثمنية ومال طربوشه الى اليمين . وكانت في حركاته محاولة رشاقة مضحكة على الرغم من ارتخاء جفن احدى عينيه وتجاعيد وجهه وكانت بشرته تشبه الخرقة البيضاء البالية اذا غسلت مرات عديد ، تشفرك روايتها بالقلق اذ تخالها تكاد تتمزق لاول لمسة .. ودفع الرجل ما عليه ونفح عبد السلام نصف ليرة فضج الحمام بكلمات الشكر والتوديع .

دمشق — حسيب الكيالي

اعلان

البيان العدد ٦٤ التاريخ ١٨ ـ ٥ ـ ٤٩

ان تمام الدار المتسلسلة ١٧٦٧ الواقعة في محلة العمارة العائدة الى صالح بن مهدي السقير وامينة بنت عبداليمة المؤمنة بالوكالة الدورية عند الدائن حسون ابن ابراهيم قد وضعت بالمزايده مقابل بدل الرهن وربحه فمن تاريخ هذا الاعلان لمرور خمسة واربعين يوما على الطالب للشراء ان يراجع دائرة الطابو والمنادى

غني ابو غنيم ٣ـ٣ طابو النجف

البيان العدد ٦٤ «اعلان» التاريخ ١٨ ـ ٥ ـ ٩٤٩

سيجري تسجيل الدار المرقمة ٢٦٧ ـ ٤٨ ذات تـ ٢٤٧ المفرزة لثلاثة دور بصورة غير رسمية الواقعة في محلة الحويش مجددا من الانتقال باسم ورثة العراقي علي ابن حسون دوكي باعتبارها املاك صرف فعلى من يدعي خلاف ذلك مراجعتنا خلال ثلاثين يوما من تاريخ اول نشرة مستصحبا مستنداته

٣ـ٣ طابو النجف